حول كتاب
"مشكلة النخبة في الشرق"
تقديم عبد الله عبد الدائم

لا شك ان النخبة هي المفصحة دوماً عن مقام المجتمع ، وان قيمة الشعوب لا تقاس بمتوسط مستوى الناس فيها بمقدار ما تقاس بعدد الأفراد النابهين الأفذاذ الذين يمثلون الصفوة بينها . ففي هؤلاء الافراد تتجسد مطامح الأمة وصبواتها ، وعنهم تصدر اندفاعة المجتمع نحو مستقبل اكمل . وهم الذين ينتشلون امتهم من روح المحافظة التي تسيطر على سواد الناس ، ويقذفون بها في طريق التجديد العميق مرهصين بما ستؤول اليه تلك الامة ، متحسسين بالتيارات الخفية التي تضطرم في اعماقها ، مسترين بزوغ هذه التيارات .

وكثيراً ما تلخص حياة الامة كلها في هؤلاء الافراد القلائل ، وكثيراً ما ترتد عبقريتها كلها إلى فرد او أفراد . **والذي خلق التاريخ وخلق الأمم ، كما نعلم ، هم هؤلاء القلة .. إنهم قلة في عددهم ، ولكنهم فيما يحملون من آمال الجمهور وتطلعاته كثرة غالبة . وقد يجهلهم الجمهور احياناً ، ولا يرى كيف يمثلون حقيقة حاجاته ، ولكنه ما يلبث حتى يلمس سرهم ، فيندفع إثرهم .**

وأقوى ما في هذه النخبة انها تظل الحافظة الامينة للقيم الفكرية والخلقية العالية . فهي تخلص لهذه القيم حين يكفر بها اكثر الناس ، وبهذا تري هؤلاء الناس كيف يعيش المثل الاعلى وكيف يخلق كبار النفوس ، وتجعل من القيم الرفيعة شيئاً ذا كيان وجسد ، لا مجرد آمال واحلام .. وعن هذه الطريق تحول بين عامة الناس وبين التنكر لهذه القيم ، وتجعلهم لا يقدمون على انتهاكها إلا وهم أذلة صاغرون . فهذه النخبة عيون رائعة ترمق الناس في سرهم وعلانيتهم ، فتحبسهم عن الشر وتدنيهم من الخير .. وهي امل باسم يمني المخلصين من الناس بما ينتظرهم من رتبة العظماء ومقامات ذوي النفوس الكبيرة .

ثم ان تذوق المعاني الفكرية والروحية العميقة لا تتأتى للجمهور إلا عن طريق هذه الصفوة . فهي إذ طعمت ، تعرف كيف تنقل ما طعمت الى غيرها .. وهي إذ رأت وأبصرت ، تعرف كيف تنثر ، بمجرد وجودها ، ما رأته وأبصرته .. إنها صاحبة اذواق . وإن احاسيسها لنضاحة بهذه الانسانية الكبرى .. ومن خلال جسدها تنطلق دوماً رعشة الجمال والخير ، فتسيطر على من حولها وتشيع فيهم هزة كريمة مبدعة .

عن مثل هذه الصفوة يتحدث الشاعر الكبير سعيد عقل في كتابه « مشكلة النخبة في الشرق » . ومن خلال حديثه عنها تتجلى معاناته الحية العميقة لحياة هذه النخبة . ومن خلال كلماته يقرأ القارىء ما يملكه رجل النخبة من توفز ونظرة إنسانية رحبة مطلعة ، تجعل معرفته وخلقه « في مستوى المصائر الكبيرة » . إنه يبين لنا قبل كل شيء ان النخبة هي من لا يوجهها القدر ، بل توجهه . فهي لا تستقبل الوجود ، وإنما تقصده . وهي لا تقف من العالم موقف المنفعل القابل ، بل تفعل فيه وتشعر بانها هي المسئولة عن مصيره . وهي التي ترفع الناس عن مستوى الصغائر ، وتقودهم الى « المناخات العلى » ، وتمدهم « بنبل العلم وبالفكر الكبيرة » . إنها بعيدة عن « الاثرة والانكفاء على الذات » ، شاعرة بجرمتها ؛ وشعورها بجرمتها هذا هو « كل حيويتها » ، وهو « السياج الذي يصون العالم من إغراء المال يلوح به اصحاب الاعمال الكبيرة » . وتاج اعمالها « ان تنادي بين فترة واخرى إلى التمرس بعمل ضخم يجيء في مستوى القضاء والقدر » .

ويبين الشاعر ان الخلاص من الاخطار الكبيرة التي تواجه الامة ، من مثل خطر اسرائيل ، لا يكون إلا بهذه النخبة . وما مأساة فلسطين إلا نتيجة لانعدام هذه النخبة التي كان في وسعها وحدها ، لو وجدت ، ان تعد منذ اربعين سنة لمواجهة خطر الصهيونية . وهو يفرق بين النخبة والحزب تفريقاً جوهرياً . لأن الحزب عمل سياسي ويتطلب الحكم بالتالي .. بينما تظل النخبة « اكبر من تطلب الحكم واكبر من الحكم » . « فتسلم زمام الحكم مشوب ، وإن قليلاً ، بشهوة السلطة ، والنخبة فوق الشهوة وفوق السلطة » . ولا يقوده هذا التفريق إلى محاربة الحياة الحزبية ؛ بل يرى ان اصطراع الاحزاب ، في بعض المراحل « خير طريقة لشفاء قوى الشعب المصابة ريثما تنضج فيها العافية » . غير انه يرى ان « الحزب ينفي سواه ، والنخبة تلهم سواها » . واجمل ما في هذا التفريق عنده حديثه عن

الاحزاب التي انتهجت سبيل العمل الحزبي ، وظل قوادها مع ذلك متحلين في قرارة نفوسهم بمناقب النخبة . فكلنا يعلم الصراع الذي يثور في نفوس هؤلاء القواد بين طبيعة العمل السياسي التي تجر إلى الخصومة ، وبين صفات ابناء النخبة التي تأبى ان تحارب الاشخاص وتكتفي بمهاجمة الشر فيهم . وكلنا يعلم كيف يُضطر هؤلاء القواد احياناً – إن سلكوا هذا السبيل ، سبيل العمل الحزبي الذي تغذيه روح النخبة وخصالها – إلى خيانة العمل الحزبي ، لأنهم يخسرون المعركة مع خصومهم ولا يصلون إلى الحكم ، رغبة منهم في الوفاء للعقل والانصاف والخلق .

والحق أن الكاتب يلمس ههنا مشكلة عميقة تواجه الجيل العربي المخلص عندنا .. فهذا الجيل يبدأ حياته مخلصاً للقيم الخلقية والفكرية السامية ، متحلياً بأعراق النخبة . ولهذا يكتفي في بدء حياته بان يكون فوق الخصومات وفوق العمل الحزبي المباشر ، ولا يجاوز موقف الموجّه المبشر بالمعاني النبيلة .. ولكنه ما يلبث حتى يجد نفسه بحكم موقفه النبيل هذا نفسه ، مضطراً الى تنظيم توجيهه هذا تنظيماً عملياً اكثر جدوى ونفعاً . إذ يرى ان لا سبيل الى فرض اخلاق النخبة ومطالبها إلا عن طريق تكوين صف نضالي يخوض الحياة العامة ولا يبقى على هامشها ، وينخرط في العمل السياسي بالتالي .. غير انه يريد هذا العمل السياسي عملاً من نوع جديد ، تنسجم فيه المبادىء مع اسلوب تطبيقها ، وتظل القيم الخلقية والفكرية رائده وموجهه ، ويظل مترفعاً عن الأهداف الشخصية والغايات العاجلة .. وهو ، إذ ينتهج هذا الأسلوب ، اسلوب العمل السياسي المخلص لمبادىء النخبة ، يجد نفسه عاجزاً عن فرض وجوده السياسي ، مقصراً عن الأحزاب النفعية القائمة على الخصومات والمهاترات .. وهنا يتنازعه اتجاهان : إما ان يسلك سبيل العمل السياسي المباشر ، سبيل سائر السياسيين ، فيتخلى عن مبادىء النخبة ويصل الى الحكم ، ويبرر عمله هذا بانه عمل تمليه ضرورة تحقيق الأفكار التي آمن بها . وإما ان يظل في طريقه الأولى ، يعمل باسلوبه السياسي الجديد المحمّل بعبق المبادىء والقيم الرفيعة ، ويحجم عن انتهاج الأسلوب السياسي العادي المؤدي الى النجاح والحكم . وإذ ذاك قد يشعر بانه يحكم على مبادئه نفسها بالعقم ، وعلى قيمه بان تبقى بعيدة عن التحقيق ، ما دام لم ينتهج سياسة الوصول الى حكم يحقق فيه غاياته ، وما دام لم يستبح لنفسه ان يجعل الوصول الى الحكم ، باي وسيلة ، امراً جائزاً تبرره الرغبة في تحقيق المبادىء والأهداف عن طريق الحكم .

والذي نريد ان نقوله بهذا الصدد هو ان هذه المشكلة التي تواجه الجيل العربي الواعي ليست عصيّة على اي حل ، وان الموقف السليم لا يكون بان تعتزل النخبة في أبراج النخبة ، كما لا يكون بان تتخلى النخبة عن مبادئها واهدافها منتهجة اسلوب السياسة الناجحة العاجلة .. فالمشكلة واقعة مستعصية على الحل حين لا يملك هذا الجيل النفَس الطويل ، وحين لا ينظر النظرة البعيدة ، زاهداً بالربح العاجل في سبيل ربح آجل ، بعيد ولكنه مضمون ، قد لا يلقاه هو وتلقاه امته من بعده . اما إذا تخلص هذا الجيل من نزق المطالبة السريعة ، وعلم ان نجاح النخبة في عملها السياسي لا يتأتى إلا بعد مراحل طويلة في حياة البلاد ، وبعد بناء هادىء راسخ طويل الأمد ، فعند ذلك يتخلص في الوقت نفسه من هذا الصراع المتأزم في نفسه بين الاتجاهين اللذين ذكرنا : اتجاه العمل السياسي المباشر ، واتجاه العمل بروح النخبة ، بعيداً عن العمل السياسي .

والواقع ان بقاء النخبة في جوها الصافي ، بعيدة عن الحياة السياسية الكدرة القائمة ، خيانة لرسالتها ، ونوع من الترف يجعلها تفضل البقاء في صفوها ، ولو كان هذا البقاء عقيماً ، على النزول الى معترك الحياة الواقعية الدامية . وليس أجمل حقاً من ان يعتزل رجل النخبة في جوه الروحي العبق ، متعالياً على كل شيء : ولكن الجمال شيء ، والواجب شيء آخر . وعبث ان يبرر مثل هذا الرجل موقفه بأنه يقدم ، عن طريق اعتزاله هذا ، خدمات لا يقدمها عن غير هذه الطريق : فمثل هذا القول يظل تبريراً وادعاء وفلسفة للتخاذل ، وليس واقعاً .

إن براعة الفكرة تتجلى بأن يستطيع صاحبها ان يقلبها الى عمل . وقوة رجل النخبة ينبغي ان تتبدى في قدرته على ان ينظم قيمه وافكاره في اسلوب عملي يشيعه بين أكبر عدد ممكن من الناس . ولا معنى للفكرة إن لم تكن قوة ، قوة موجّهة حقيقية . وبمجرد إشعاع الفكرة من بعد لا يهب لها كامل قوتها وإمكانياتها ولا يمكن ان تعطي هذه الفكرة كامل قوتها إلا إذا نُظّم نشرها وإذاعتها . وتنظيم هذا النشر وتلك الاذاعة هو العمل السياسي عينه ، إذا فُهم كما تريده النخبة .

وهذا لا يعني ان المسألة ليست دقيقة وصعبة ، وان الانحدار من مثل هذا العمل السياسي الموجّه بروح النخبة الى العمل السياسي التافه ليس خطراً صعب الاجتناب . ولكن مهمة النخبة ، قبل غيرها وقبل اي شيء آخر ، هي ركوب مثل هذه

المواقف الدقيقة الصعبة وحسن قيادتها . ومتى كان الموقف الصحيح ميسّراً سهلاً ؟

وهل تأتي غلطة الشاعر في كتابه هذا ، حين يورد بعض الافكار التي لا نقره عليها ، إلا بسبب هذا الانعزال الذي تعيش فيه النخبة احياناً ، والذي يحملها على ألا تحسن فهم واقع حياة امتها ، وعلى ان تعالج الامور معالجة من لم ينزل الى واقع هذه الأمة ، وبقي في مفاهيمه المجردة وأفكاره المبيّتة ؟ إنه يبيّن مثلاً ان « الصهيونية ، منذ ان تأسست ، انطوت طبيعياً على محو لبنان » ، ويعتبر هدف الصهيونية لبنان من دون سائر البلدان العربية . ويورد بعض الحقائق التي لا ننكر بعضها ، وإن يكن أكثرها مصطنعاً . فسائر البلدان العربية الاخرى ، فيما يرى ، « إما صفر من المياه ، وإما ذات مياه اجنبية المنبع — إلا لبنان .. » وجميعها ، إلا لبنان ، واقعة من الكرة تحت الدرجة الخامسة والثلاثين من خطوط العرض ، مما يجعلها بعيدة عن ان تكون مركزاً للمدنية . « فلا ينابيع قومية إلا في لبنان ، ولا مناخ ملائم إلا في لبنان » ؟! وسماء لبنان تمطر سبعين بالمائة من مجموع امطار البلدان العربية !!

وهنا نسائل : متى كانت الظروف الطبيعية المادية وحدها هي التي تكوّن الأمم وتخلق الحضارات ؟ أوليس الانسان هو المتحكم في الطبيعة ؟ أو لم يقلب الصحارى الى سهول ، ويطلق المياه حيث لا مياه ، ويغير وجه الأرض كما يشاء ؟ أو ليس تاريخ الحضارة الانسانية هو تاريخ تغلب الانسان على الطبيعة والأرض والمناخ ؟ وهل يجوز الحديث عن أثر البيئة الجغرافية في عصر سادت فيه الوسائل التكنيكية القادرة على الهزء بهذه البيئة ؟

وهل صحيح بعد ذلك ان لبنان وحده يتمتع بهذه الشروط المادية الملائمة ؟ وهل يفكر الصهاينة في مياه لبنان دون ان يفكروا في بترول العراق والجزيرة مثلاً ؟ وهل في وسع لبنان ، قبل هذا وفوق هذا ، ان يقاوم الصهيونية منفرداً ، ناسياً تكتله مع سائر ابناء الأمة العربية ؟ أو ليست مهمة النخبة ان تخلق هذا الوعي العربي الجامع الذي يستطيع وحده ان يقف مدافعاً مكيناً ؟ واين تعيش القيم الفكرية الرفيعة والمعاني الروحية العميقة التي تثور في نفوس النخبة ، إن لم تعش في الدعوة الى كيان قومي عربي سليم ، يستطيع وحده ان يجابه شتى الآفات التي تكتنف الامة العربية ؟ إن الكاتب نفسه يبين خير بيان ان الحرب قائمة بين العلم والعاطفة ، وان مهمة رجل

— التتمة على الصفحة ٦٩ —

انا والراهب

[هذه القطعة من وحي وحدتي كل مساء . إن امام بيتنا في مدريد ديراً ، وفي كل مساء يخرج راهب الى سطح الدير امام نافذتي حيث ارقب الغروب الرائع . يخرج هذا الراهب ومعه كتابه او إنجيله . ويصلي الى ان يخيم الظلام على الحي .]

هوى الله يغريك يا راهبي عن السحر والافق الغارب
وعن روعة الشمس سالت دماً سكيباً على الشفق اللاهب
وجدتك مثلي كل مساء وحيداً مع المغرب الذاهب
تصلي لربك مستلهماً هداك من المنعم الواهب
وأشكو لربيَ من عاصف يدوّم في صدري الغاضب

★

وفي خافقي ثورة لا تكنّ وفي مقلتي دمعة العاتب
وكم صغت بالوهم يا راهبي عقوداً من الاصفر الذائب
وعشت باحلام قلب جريح تهرّب من همه الناصب
واني وإن أوحدتني الليالي وعُلقتُ في ظفرها الناشب
وحالت اغاريد قلبي نواحاً وعشت على الامل الكاذب
فقلبي سيبقى رفيع المنى عزيز الهوى شامخ الجانب
رأيتك تخشى عليك لحاظي فتعرض عنيَ كالهارب
اما اسطعت بعد المراس الطويل خلاصاً من اللهب الراغب
أآدم آدم في كل درب يعيش اسير الهوى الساغب
يخاف الغواية ... يا ضعفه ولو كان في بردة الراهب
رويدك لا تخش من فتنة تقيدها ربقة الواجب
فقلبي طفل بريء الهوى وخمري تعزّ على الشارب
ولكن بروحي حنين الى سكينة نفسك يا صاحبي
عسى يطمئن فؤادي ويخبو التضرم في روحي الصاخب
كلانا وحيد . فيا وحشتي غريبة دار بلا صاحب
ويلهو بمدريد احبابنا وأعرض عن لهوها الكاذب
ولو شئت حامت على فتنتي قلوب تعزّ على الخاطب
أغالب منهن أسمى القلوب ويُرضي المنى أنه غالبي
وفي الشام عين انا حلمها على سهدها والكرى العازب
وفي الشام قلب انا نوره وأوبة إيمانه الغائب

★

وتمضي الليالي ولا كوكب يشع على املي الخائب
وتبقى هناك وأبقى هنا وحيدين في المغرب الشاحب

مدريد

سلمى الخضراء الجيوسي